﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٢٠﴾ [البقرة: 220]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكَرَ أبو حيَّان أنَّ في هذه الآية مناسبتين لما قبْلها، أوّلها: أنّه لَمّا ذَكَر السُّؤال عن الخمْرِ والمَيْسِرِ، وكان تركُهُما مدعاةً إلى تنميةِ المال، وذكر السُّؤال عن النَّفقة، وأجيبوا بأنهم يُنفقونَ ما سَهُلَ عليهم، ناسبَ ذلك النَّظر في حال اليَتيم، وحِفْظِ ماله، وتنميتِهِ، وإصْلاحِهِ، وَتَرْبِيَتِهِ. فالجامِعُ بين الآيتين أنَّ في ترك الخَمْر والمَيْسِر إصْلاحَ أحوالِهم وأنفسِهم، وفي النَّظر في حال اليتامى إصْلاحًا لغيرهم ممَّن هو عاجزٌ أنْ يُصلح نفسَه، فَيَكونونَ قد جمَعُوا بين النَّفع لأنْفُسِهم ولغيرِهم.

وثانيها: أنّه لما كان العفْوُ غير مقْصُورٍ على المال بل يعمُّ القوى البَدَنيَّة والعقليَّة وكان النَّفعُ لليتيم من أجلِّ ما يُرشِدُ إليه التَّفكُّرُ في أمور الآخرة وكان الجِهادُ من أسبابِ القتْل المُوجِبِ لليُتْم؛فنزل التَّحريج الشَّديد في أكل أموالهم؛ فجانبوهم واشتدَّ ذلك عليهم، فسألوا، فندبَهم سبحانَه وتعالى إلى مخالطَتِهم على وجهِ الإصْلاح الذي لا يكون لمنْ يتعاطى الخَمْرَ والمَيْسِرَ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: الدَّالُ، وَالنُّونُ، وَالحَرْفُ المُعْتَلُّ أَصْلٌ وَاحِدٌ يُقَاسُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَهُوَ القُرْبُ[2]. والدُّنيا فُعْلَى من الدُّنوِّ، أي: دَنَتْ وتأخَّرَتِ الآخِرةُ. والسَّماء الدُّنيا؛ لقُرْبها من ساكني الأرض[3]. والدُّنوُّ: القُرْبُ بالذّات، أو بالحُكْم، ويُستعمل في المكان، والزَّمان، والمنزلة[4]. وكلمة (الدُّنيا) من أشْيَعِ مُفردات القرآن، وهي اسمٌ لهذه الحيَاة لبُعد الآخِرة عنها، وكلّ ما فيه من التَّركيب هو من الدُّنوِّ: القُرْبِ، لكنَّ هناك صُوَرًا خاصَّةً له[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/170.
(2) ابن فارس، المقاييس: (دَنَىَ).
(3) الخليل، العين: (دنأ، دنو)، ابن الأثير، النهاية: (دنا).
(4) الراغب، المفردات: (دنا).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (دنو).

2) ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾: الهَمْزَةُ وَالخَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ إِلَيْهِ تَرْجِعُ فُرُوعُهُ، وَهُوَ خِلَافُ التَّقَدُّمِ. والآخِرُ، والآخِرة نَقِيضُ المُتَقَدِّمِ والمُتَقَدِّمَة[1]. ويعبر بالدار الآخرة عن النَّشأة الثانية، كما يُعبَّر بالدَّار الدُّنيا عن النَّشأة الأولى[2]، فـ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: صفةٌ غالبةٌ للدّار أو الحيَاة التي بعد دار الدُّنيا. وهي في كل القرآن بهذا المعنى عدا ﴿ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [ص: 7][3].

3) ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾: السِّينُ، وَالهَمْزَةُ، وَاللَّامُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، وهي: اسْتِدْعاء معرفةٍ، أو ما يؤدِّي إلى المعرفةِ، واسْتِدْعاءُ المعرفةِ جوابُه على اللسان[4]. والسُّؤال استخْبارٌ، والمجيبُ مخْبِرٌ[5]. وخلاصةُ معنى هذا التَّركيب هو الطَّلبُ: إما طلبُ شيءٍ، وتحصيلُه، أو طلبُ علمٍ أو معلومةٍ عن شيءٍ[6]. وهو معنى اللفظة في الآية الكريمة.

4) ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ﴾: ذهبَ الخليلُ إلى أنّ اليُتْم لا يقال: إلّا بفقدانِ الأَبِ[7]. ونقلَ عنه الأزهريُّ أنَّ "اليَتِيم الَّذِي مَاتَ أَبوهُ فَهُوَ يتيمٌ حَتَّى يَبْلُغَ، فَإِذا بَلَغَ زَالَ عَنهُ اسْم اليَتِيم"[8]. ووسَّع ابن دريد فذهب إلى أنّ اليُتْم: هو الفَرد، وَبِه سُمِّيَ الَّذِي يَمُوتُ أَحَدُ وَالِديهِ؛ كَأَنَّهُ أُفْرِدَ[9]. ونُقل عن ابن السِّكيت أنّه لا يُقال لِمَنْ فَقَدَ الأُمَّ من النَّاس: يَتِيمٌ، ولكن مُقْطَعٌ[10]. وعلى هذا فاليَتِيم من الصبيان: الذي مات أبوه، فأُفرِد بذاته، وكل ما في القرآن من التَّركيب هو اليَتِيمُ بهذا المعنى أُفرد، أو ثنّي، أو جُمِع[11].

5) ﴿قُلۡ﴾: (القَافُ، والواوُ، واللّامُ) أَصْلٌ صحيحٌ، وهو القَوْلُ من النُّطقِ[12]. والقَوْلُ: كلُّ لفظٍ قال به اللسان تامًّا كان، أو ناقصًا، فهو: الألفاظُ المفردةُ التي ينبني الكلامُ

(1) الخليل، العين: (أَخَرَ)، ابن فارس، المقاييس: (أَخَرَ).
(2) الراغب، المفردات: (آخر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أَخَرَ).
(4) ابن فارس، المقاييس، الراغب، المفردات: (سَأَلَ).
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 41.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (سأل).
(7) الخليل، العين: (يَتَمَ).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، الراغب، المفردات: (يَتَمَ).
(9) ابن دريد، جمهرة اللغة: (يَتَمَ).
(10) المحكم، ابن سيده: (يَتَمَ).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقي: (يَتَمَ).
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قول).

منها[1]، ويُقالُ: هذا قولُ فلانٍ، أي: رأيُه، ومذهَبُه[2]، أي: "لم يُرد القول النطقيَّ فقط، بل معه اعتقادٌ، وعمل"[3]، فالقول يُستعمَل على أنحاءٍ، منها: أنْ يُفْصَل به حكاية الجُمَل المفيدة، وهذا غالب أحواله، وقد يُراد به: الاعتقادُ[4]. فقد يُطلق القول على الآراء، والاعتقادات[5]، وهو في الآية المباركة أمر من الله لنبيّه ﷺ بإجابة السّائلين عن اليتامى قولا متضمّنًا حقيقة التَّشريع، والمعتقد، والحكمة في هذه المسألة.

6) ﴿إِصْلَاحٌ﴾: الصَّادُ، وَاللَّامُ، وَالحَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يدلُّ عَلَى خِلَافِ الفَسَادِ[6]. فالصّلاحُ: نقيض الطّلاح[7]. وهما مختصَّان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقُوبِل في القرآن تارةً بالفَساد، وتارةً بالسَّيِّئة[8]. وَأَصْلح الشَّيء بعد فَسَاد، أَقَامَهُ. وأصلحَ الدَّابَّة: أحسن إِلَيْهَا، فصَلَحَتْ. فالصالحُ: الَّذِي يؤدِّي إِلَى اللّه ﷻ مَا افْترض عَلَيْهِ، وَيؤدِّي إِلَى النَّاس حُقُوقهم، والمُصْلِح، المُقيم على الإِيْمَان المُؤَدِّي فَرَائِضه اعتقادا وَعَملا[9]. والإِصْلاح الاسْتِقَامَة على مَا تَدْعُو إِلَيْهِ الحِكْمَة[10]، ومما سبق يتبيَّنُ أنَّ الإصْلاح هو الذي يتَّفق ويلتئم مع ما يطلبه الشرع، أو يرضاه من صدور الأفعال والأقوال الحسنة[11]. وبه تُفَسَّرُ اللفظة في الآية الكريمة.

7) ﴿خَيْرٌ﴾: الخاءُ، واليَاء، والرَّاءُ: جذرٌ أصلُهُ العَطْف، والمَيْلُ، ونقيضُهُ الشَّرُّ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ يميلُ إليه، ويعطِفُ على صاحبِه، والخيرُ: الكَرمُ[12]، وهو: ما يرغبُ فيه الكلُّ: كالعَقْلِ، والعَدْلِ، والفَضْلِ، والشَّيء النافع، وهو من الخير المطلق؛ لكونه مرغوبًا فيه بكلِّ حالٍ[13]. وتحتملُ الخيريَّة في الآيةِ الكريمةِ المعانيَ الواردةَ في تفسيرها من مَيْلٍ إلى اليَتيم،

(1) ابن سيده، المحكم، ابن منظور، اللسان: (قول).
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (قول).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (قول).
(4) السمين، المصدر نفسه: (قول).
(5) ابن سيده، المحكم: (قول).
(6) ابن فارس، المقاييس: (صلح).
(7) الخليل، العين: (صلح).
(8) الراغب، المفردات: (صلح).
(9) ابن سيده، المحكم: (صلح).
(10) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 209.
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/355.
(12) ابن فارس، المقاييس: (خير).
(13) الراغب، المفردات: (خير).

وعطْفٍ، وَكَرَمٍ، وعَدْلٍ، وفَضْلٍ، ونفْعٍ، وغير ذلك ممّا يُتحصَّلُ به النَّظر في إصْلاحِهِ في أموالِهِ وبدَنِهِ وترْكِ إضاعتِهِ بالتَّقويمِ والتَّأديبِ وغيرها، لكي ينْشَأ على عِلمٍ وأدبٍ وفضْلٍ، فضلا عن النَّظر في حال الوليّ بدَفْعِ التَّقْصير عنه في حقِّ اليَتيم[1].

8) ﴿تُخَالِطُوهُمْ﴾: الخَاءُ، وَاللَّامُ، وَالطَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ مُخَالِفٌ للخلوص الَّذِي هُوَ تَنْقِيَةُ الشَّيء وَتَهْذِيبُهُ، بَل هُوَ مُضَادٌّ لَهُ[2]. فالخلط: خلطُكَ الشَّيء بعضَه ببَعْض[3]. والخُلَطَاءُ: الشُّرَكاءُ، الَّذين لَا يتميَّز مِلكُ كلِّ واحدٍ من مِلكِ أَصْحابِه إلَّا بالقِسْمَة[4]. ويقال للصَّديق والمجاور والشَّريك: خليطٌ[5]. ومعنى اللفظة في الآية الكريمة: خلطُ مالِ اليَتيم بمالِ كافلِه[6].

9) ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾: الأصل فيه: أَخَوَ، وهو: المشاركُ آخَرَ في الولادة من الطَّرفين، أو من أحدهما، أو من الرَّضاع. ويُسْتَعار في كلّ مشاركٍ لغيره في القبيلة، أو في الدِّين، أو في صنْعةٍ، أو في معاملةٍ، أو في مودَّةٍ، وفي غير ذلك من المناسبات[7]. وأصلُ معناه عُرْوةٌ أو نحوها يُشَدُّ فيها الشَّيء، أي: يُرْبَط كما تُرْبط الدابَّة في عُرْوة الآخية. والأَخَوانِ مرتبطان بخروج كلٍّ منهما من نفس الصُلب، ولِلحظِ الارتباطِ عُبّر بها عن الصَّداقة والصُّحبة، وفي المقترنين المتلازمين في عقيدة أو حال[8]. ومعناه في الآية الكريمة: مُلازِمونَ لكم مُشاركونَ فيما خالطوكُم فيه.

10) ﴿ٱلْمُفْسِدَ﴾: الفَاء، والسِّين، والدَّال كلمةٌ واحدةٌ، هي: الفَساد[9]: نَقيضُ الصَّلاح[10]، وفَسَد الشَّيء: إذا بارَ[11]. وبَطَلَ واضْمَحَلّ، وتَغَيَّرَ، فهو: أَخْذُ المالِ ظُلماً بِغَيْرِ حَقٍّ[12]، وهو: خروج الشَّيء عن الاعتدال، قليلا كان الخروجُ عنه أو كثيرًا، ويُستعمل في النَّفْس، والبَدَن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة[13]. وخلاصةُ القوْل في الفَسَاد في هذه الآية أنّه: يشملُ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/404، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/356.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خَلَطَ).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (خَلَطَ).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (خَلَطَ).
(5) الراغب، المفردات: (خَلَطَ).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (خَلَطَ).
(7) الراغب، المفردات: (أخ)
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أخو: أخي)
(9) ابن فارس، المقاييس: (فسد).
(10) الخليل، العين: (فسد).
(11) الأزهري، التهذيب: (فسد).
(12) الزبيدي، التاج: (فسد).
(13) الراغب، المفردات: (فسد).

الأضرارَ التي تَمَسُّ اليَتِيمَ مباشرةً وذلك بالتَّقصير في الرِّعاية، والتَّربية، والغِشّ، والإهمال، ونهْبِ المال وسرقتِه، والخيانَةِ في إدارته وغيرها.

11) ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾: العَيْنُ، وَالنُّونُ، وَالتَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يدلُّ عَلَى مَشَقَّةٍ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَلَا يدلّ عَلَى صِحَّةٍ وَلَا سُهُولَةٍ[1]. والعَنَت: إدخالُ المشقّةِ على إنسانٍ[2]. والعَسَف أو الحَمْل على المَكْرُوه[3]. وهو الفساد، والهَلَاك. وأعْنَتَهُ وتَعَنَّتَه: سَأَلَهُ عَن شَيْءٍ أَرَادَ بِهِ اللَّبْس عَلَيْهِ وَالمَشَقَّة، أوْقَعه في الهَلَكَة[4]. والمعانتة: معاندةٌ فيها خوفٌ وهلاكٌ، ووقوعٌ في أمر يُخافُ منه التَّلف[5]. وعَنَتَهُ: شدَّد عليه وألزَمَهُ ما يصعُب عليه أداؤه، وعُمِّمَ في الهلاك، والضَّرر والمشقَّة الشَّديدة[6]. وجلُّ هذه المعاني مرادة في معنى اللفظة.

12) ﴿عَزِيزٌ﴾: العَيْنُ، وَالزَّاي أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ، يدلّ عَلَى شِدَّة وَقُوَّةٍ وَمَا ضَاهَاهُمَا، مِنْ غَلَبَةٍ وَقَهْرٍ[7]. العِزُّ: خلاف الذُّلِّ[8]. وكل شَيْءٍ صلب فقد اسْتعزَّ[9]. ومن أسماء الله تعالى: (العزيز)، وهو الغالب الشَّديد القوي الذي لا يُغلب[10].

13) ﴿حَكِيمٌ﴾: الحَاءُ، وَالكَافُ، وَالمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ المَنْعُ. وحَكَمَ أصلُهُ: مَنَعَ منعًا لإصْلاح. وَالحِكْمَةُ هَذَا قِيَاسُهَا؛ لِأَنَّهَا تَمْنَعُ مِنَ الجَهْلِ، فهي إصابةُ الحقِّ بالعِلم والعَقْل، وهي من الله تعالى: معرفةُ الأشياءِ وإيجادُها على غايةِ الإحكام، ومن الإنسان: معرفةُ الموجوداتِ وفعلُ الخيراتِ[11]. ومَرْجِعُها إلى العَدْل والعِلم والحِلم. ويقال: أحْكَمَتْه التَّجارِبُ إذا كانَ حَكِيمًا[12]. فالحَكِيمُ: العالِمُ، وصاحبُ الحكمة المتْقِنُ للأمور[13].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عَنِتَ).
(2) الخليل، العين: (عَنِتَ).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (عَنِتَ)
(4) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/34، وابن سيده، المحكم: (عَنِتَ).
(5) الراغب، المفردات: (عَنِتَ)
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عَنِتَ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عَزَّ).
(8) الجوهري، الصحاح: (عزز).
(9) ابن دريد، جمهرة اللغة: (عزز).
(10) ابن الأثير، النهاية، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عزز).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حَكَمَ).
(12) الخليل، العين: (حَكَمَ).
(13) الزجاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 56، والجوهري، الصحاح: (حَكَمَ).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإصلاح لليتامى، ومخالطتُهم أُخُوَّةٌ

الآية الكريمة حثٌّ على إصْلاح حال اليتامى الذين مات آباؤهم وهم دون سن البلوغ، كيف يتصرفون معهم في معاشهم وأموالهم وسائر أحوالهم؟ بعد أنْ كان وصْفُ اليَتِيم عندهم ملازمًا لمعنى الخَصاصَةِ، والإهمال، والذُّلِّ، وبه يظهرُ معنى امتنان الله تعالى على نبيِّه أنْ حفظَه في حالِ اليُتْم ممّا ينالُ اليتامى في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى: 6]. ولسببِ نزولها أثرٌ في استجلاء إجْماليِّ معناها؛ إذ لَمَّا نزلتْ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: 152] تجنبوا النَّظر في اليتامى، وعزلوا أموالَهم فذكروا ذلك لرسولِ الله ﷺ؛ فنزلتْ: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾[1].

وترشدُ الآية الكريمة إلى مراعاةِ حالِ الأيْتَام والتحوّط في التَّصرف في أموالهم ومخالطتِهم إخْوانًا، وعلى الأخ أن يرعى مصلحة أخيه، وفعل الأنفع لهم دائمًا، فضلا عن ترضيةِ ولاة الأيْتَام فيما ينالهم من كَراهِيَةِ بعض محاجِيرهِمْ وضَرْبِهم على أيْدِيهِم في التَّصرُّف الماليِّ، وما يلاقونَ في ذلك من الخَصاصة، وتهدي الآية أيضًا إلى أنه ليس من المَصْلَحَةِ أنْ يُعْرِضَ النَّاس عن النَّظر في أموالِ اليتَامى اتقاءً لألسنةِ السُّوء، والله يعلم المضيع لأموال اليتامى من الحريص على إصلاحها. ولو شاء الله لضيَّق وشقَّ عليكم بتحريم المخالطة. إن الله عزيز في ملكه، حكيم في خلقه وتدبيره وتشريعه[2].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

التعلّق بـ (يبيّن) على التَّقْديم والتَّأخير

دلالة ارتباط المطلع بما قبله:

﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ متعلقٌ إمّا بـ﴿يُبَيِّنُ﴾ فيكونُ فِيهِ تَقْدِيمٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/355-354.

(2) ابن عاشور، المصدر نفسه: 2/357- 358، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 35.

وَتَأْخِيرٌ، وَتَقْدِيره: يبين الله لكم الآيَات في الدُّنيا وَالآخِرَة لَعَلَّكُمْ تَتَفكَّرون؛ فتعرفون فضْلَ الآخِرَة على الدُّنيا، فتزهدونَ في الدُّنيا، وتنفقون رَغْبَة في الآخِرَة[1]، وإمّا بمحذوفٍ وقعَ حالًا من الآيات، أي: يُبَيِّنُها لكم كائنةً فيهما، أي: مبيِّنةً لأحوالِكم المتعلِّقة بهما.

التعلّق بـ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ تَخْصِيصًا أو تعميمًا:

ويحتملُ تعلُّقهُ بقوله تعالى ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: تَتَفكَّرون في الأمور المتعلِّقة بالدُّنيا والآخرة في الأحكام الواردةِ في أجوبة الأسئلة المتقدِّمَةِ، فتختارون منها ما يَصلُح لكم فيهما، وتجتنبون غيره، وهذا التخصيصُ هو المناسبُ لمقام تَعْدادِ الأحكام الجزئيةِ، ويجوزُ التَّعْميمُ لجميعِ الأمورِ المتعلِّقة بالدُّنيا والآخرةِ، فذلك حينئذٍ إشارةٌ إلى ما مرَّ مِنَ البيانَاتِ كُلًّا أو بعضًا، لا إلى مصْدر ما بعده؛ فإنَّه حينئذٍ فعلٌ مستقلٌّ ليس بِعِبارَةٍ عَنْ تلك البيانات[2].

سِرُّ تقديم جُملة التَّعليل:

أَهَمِّيَّةُ إِعْمَالِ الْفِكْرِ لِاسْتِكْنَاهِ أَسْرَارِ الشَّرْعِ

قدَّمتْ جملة التَّعليل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ على شبه الجُمْلَةِ ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾؛ لمزيد الاعتناءِ بشأن التَّفكّر[3].

براعة الطِّباقِ بين لفظي: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾:

تَعْمِيمُ الحديثِ عَن علمِ شؤُونِ الدُّنيا والآخِرة

قوله ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ يتعلق بـ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ لا بـ﴿يُبَيِّنُ﴾؛ لأنَّ البيان واقعٌ في الدُّنيا فقط، والمعنى: لِيَحْصُلَ لكم فكرٌ، أي: عِلمٌ في شؤون الدُّنيا والآخرة[4]، فالقرآنُ الكريمُ يستعمل كلمة ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ عندما ترِدُ وحدَها من غير لفظ - (الحياة الدّنيا) - لتقابل في السِّياقِ القُرآنيِّ كلمة ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ تصريحًا أو إضمارًا؛ لتخصيص

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/263، والسمعانّي، تفسير القرآن: 1/221.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/263، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/220.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/220.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/354.

الحديث عن الدُّنيا فقط، من غير تعرّض لعمل الإنسانِ، وصفاتِه، وآثاره، ونتائجِه، وهذا يدلُّ على أنّ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ بهذا الاستعمال عَلَمٌ على هذه الحيَاةِ التي نحياها قبلَ الموْت، وكذلك الحديثُ عن الآخرةِ فقد استُعملتْ لتُقابِلَ الدُّنيا والأُولى[1].

بلاغةُ التَّصريح بلفظ السُّؤال:

أَهَمِّيَّةُ النَّظَرِ فِي مَصَالِحِ اليَتَامَى

التَّصريحُ بقيْدِ ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾ - بذِكْرِ مادّة السُّؤال - لِقَصْد الاهتمام بما سَيُذكَرُ بعدَه، والعناية بما سَيُورَدُ مِن حكم، مع ما في هذا النَّظم البَليغِ من زيادةِ إخراج الكلام في صورةِ الحُكم الكُلِّيِّ والعامِّ[2]، ولا يخفَى شأنُ اليتامى، والخمْرِ والمَيْسِر من قبله وأهميتها في ديننا الحنيف، حثًّا أو تحذيرًا، فقد ثَبُتَ أنَّ النَّظر في مصالح الأيْتَام من أهمِّ مقاصدِ الشَّريعة في حفْظِ النِّظام[3].

نُكْتَةُ إيثارِ صيغة المُضارع في التَّعْبير عن السُّؤال:

حِرْصُ الصَّحابَةِ عَلَى تَحْصِيلِ الْعِلْمِ؛ تَحَرُّزًا مِنَ الوقُوعِ فِيمَا لا يَجُوز

عبّر عن السُّؤال بصيغة المضارع ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾ حِكايةً لِلحال الماضية؛ لاستحضارِ صورة الحدث - السُّؤال - في الذِّهن وكأنّه يحصُلُ الآن، أي: وقتَ نزولِ هذه الآية. وللدَّلالة على تكْرارهم السُّؤالَ؛ بُغْيةَ تحْصيلِ العِلْم بما يجهلُون منه تحرُّزًا من الوقُوعِ في محرّماته[4].

أثرُ الوصلِ في تَرابط الآيَة مع ما قَبْلَها:

تَرابُطُ سُؤالاتِ الذِّكْرِ الحَكِيمِ وتَنَاسُبُها

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىۖ﴾ عَطَفَ بَيَانَ مُعامَلةِ اليتامى على بَيَانِ الإنفاق؛ لتعلُّقِ الأمرين بحكم تحريم المَيْسِر، أو التَّنْزيه عنه؛ فإنَّ المَيْسِر كان بابًا واسعًا للإنفاق على المحتاجين وعلى اليتامى، وهو وجْهُ عَطفِ هذه الجُمْلَةِ على التي قبلها بواو العَطْف لاتِّصال بعض

(1) أبو عودة، التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن، ص: 350-349 و370.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/178.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/354.
(4) المطعنيّ، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/126.

هذه السُّؤالات ببعض كما تقدم في قوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾، فهو من باب العَطْف على ما قبلَه من نظيرِه[1].

التَّصريحُ بالسُّؤال وسيلةٌ لحُسن التخلّص

لكون تحريم المَيْسِر مما يُثير سؤالا عن سدِّ هذا الباب على اليتامى، وفيه صلاحٌ عظيمٌ لهم، وكان ذلك السُّؤال مناسبةً حسنةً للتخلُّص إلى الوَصَاية باليتامى، والرأفة بهم، وحسنِ معاملتهم، وذِكْرِ مُجْمَلِ أحوالهم في جملة إصْلاح الأحوال التي كانوا عليها قبل الإسلام[2].

سَبَبُ إسْقاطِ الفاء من جواب السُّؤال:

طَريقةُ القُرآن الكريم إسقاطُ الفاءِ مِن جوابِ السُّؤالِ عَن أمرٍ دُنيويٍّ؛ لكونه واقعًا في الوُجُود

جواب السُّؤال في القرآن مع لفظ القول كله بغير (فَاءٍ)، ومنه الآية: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ﴾ إلا قوله ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾ [طه: 105]؛ وذلك لكون تلكم السُّؤالات من الأمور الدنيويَّة، فالسُّؤال عنها ثابتٌ واقعٌ في الوجود، أما قوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ﴾ [طه: 105] فأمرٌ أخرويٌّ والكُفَّار منكرون للبَعْث، فالسُّؤال غير واقع، لكنَّه مقدَّرُ الوقوعِ في المستقبل، أي: (إنْ يَسْأَلُوكَ عَنِ الجِبَالِ)، فهو جوابٌ لشرطٍ مقدَّر فحُسُنَتْ فيه الفاءُ[3].

بلاغة التَّعْبير عَنِ الإصْلاح بلفظ المصدر منكّرًا:

الْعَاقِبَةُ الحَمِيدَةُ لِلْإِصْلَاحِ عَلَى الْمُصْلِحِ وَالْمُصْلَحِ جَمِيعًا

التَّعْبيرُ بلفظ المصدر ﴿إِصۡلَاحٞ﴾، وإطلاقه مُجرّدًا عن لامِ التَّعْريف والزّمن وعن فاعلِه لإرادةِ العموم واستغراقِه كلَّ أنواع الإصْلاح، وعلى هذا فإنَّ الخيريّة تكون شاملةً للإصْلاح المتعلِّق بالفاعل والمفعول، أي: للجانبين معًا، بمعنى: أنّ إصْلاحهم لليتامى خيرٌ للمُصْلِح والمُصْلَح، فيتناولُ حالَ اليَتيم، والكفيل، والوليّ. والمعنى: إصْلاحُه من غير عوضٍ ولا أُجْرةٍ خيرٌ له وأعظمُ أجرًا.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/220، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/354.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/354.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/230.

وقيل: ﴿خَيْرٌ﴾ عائدٌ لليتيم، أي: إصْلاحُ الوليِّ لليتيم، ومخالطتُه له، خيرٌ لليتيم من إعراض الوليِّ عنه، وتفرده عنه.

ولفظُ: ﴿خَيْرٌ﴾ مطلقٌ، فتقييدُهُ بأحدِ الجانبين يحتاجُ إلى مرجِّح، والحمْلُ على الإطلاق كما هو ظاهر اللَّفْظِ أحسنُ[1].

براعَةُ العُدُولِ عَنِ الْإِضَافَةِ:

العدول لدفع توهُّم قَصْر الإصلاح على ذواتهم

اللَّام: للتَّعليل أوِ الاختصاص، وقد أفادتِ التَّقوية والتوكيدَ[2]، ووصفُ الإصْلاح بـ﴿لَّهُمْ﴾ دون الإضافة؛ إذْ لم يقُل: (إصْلاحهم)، إشعارٌ بالحثِّ على تخصيصهم بالنَّظر في أحوالهم ولو أدّى ذلك إلى مشقَّةٍ على الوليّ[3]، ولئلَّا يُتَوَهَّمَ قَصْرُهُ على إصْلاح ذواتهم؛ وأنَّ الإضافة لَمَّا كانت من طُرقِ التَّعْريف؛ كانت ظاهِرةً في عهْد المضاف، فعَدَلَ عنها لئلَّا يُتَوَهَّمَ أنَّ المراد إصْلاح مُعَيَّنٌ، كما عَدَلَ عنها في قوله: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: 59] ولم يقُل: (بأخيكم)؛ ليُوهِمَهُمْ أنَّه لم يُرِدْ أخًا معهودًا عنْدَهُ[4].

شُمُولِيَّةُ الْإِصْلَاحِ لِلْيَتَامَى إِصْلَاحَ عَقَائِدِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَأَبْدَانِهِمْ

فيشملُ الإصلاحُ إصْلاحَ ذواتهم، فَضْلًا عن إصْلاح عقائِدِهم وأخلاقِهم بالتَّعليم الصَّحيح والآداب الإسلاميَّة ومعرفة أحوال العالم، وإصْلاح أمزجتِهم بالمحافظة عليهم مِنَ المهْلكات والأَخْطارِ والأمراض، وبمُدَاواتِهِمْ، ودفْعِ الأضرار عنهم بكفايةِ مُؤَنِهم مِنَ الطَّعام واللِّباس والمسْكَن بحسَبِ مُعْتَادِ أمثالِهم، دون تقْتِيرٍ ولا سَرَفٍ، وإصْلاحِ أموالِهم بتنميتِها وتعهُّدِها وحفظِها[5].

فإنَّه لو قيل: (إصْلاحهم)؛ لتُوُهِّمَ قَصْرُهُ على ذواتِهم، فيحتاجُ في دلالةِ الآية على إصْلاح الأموال إلى القياس، ولو قيل: (قُل

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/171-172.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/356، وفخر الدين قباوة، المفصّل في تفسير القرآن، ص: 114.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/266.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/356.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/356.

تَدْبيرهُم خيرٌ) لتبادَرَ إلى تَدْبير المال، فاحتِيجَ في دِلالتها على إصْلاح ذواتِهم إلى فَحْوى الخِطَاب[1].

دَفْعُ تَوَهُّمِ غَيْرِ الْمُـرَادِ فِي مَقَامِ بَيَانِ الْأَحْكَامِ

نُكْتَةُ إِيرَادِ ﴿خَيْرٌ﴾ مَصْدَرًا مُجَرَّدًا عَنِ التَّعريفِ والوَصْفِ:

التَّعْبير بالمصْدَر ﴿خَيْرٌ﴾ الدَّالّ على مُطْلق الخيريّة، مجرّدًا عنِ لامِ التَّعريفِ والإضافة والوصْفِ: تعميمٌ يقابلُ مُطْلقَ الإصْلاح، واستغراقٌ للخيريّة لا عدٌّ لصُورِه، ومآلُهُ الحثُّ على التخلّقِ به، والترغيبُ فيه عملا مباركًا، وصَنِيعًا مُنْجيًا من المهالك، وعلّة الإخبار بـ﴿خَيْرٌ﴾ الدَّالِّ على تحصيل الثواب: ليُبادر المسلمُ إلى فعل ما فيه الخيرُ طلبًا لثواب الله تعالى[2].

الْمُبَادَرَةُ إِلَى فِعْلِ الـخَـيْرِ طَـلَـبًا للثَّواب

دِلالة التَّعْبير بلفظ ﴿خَيْرٌ﴾ بينَ التَّفْضيل والوصفيَّةِ:

لفظ ﴿خَيْرٌ﴾ في الآية يَحْتَمِلُ أن يكونَ أفعل تفْضيل، إن كان خطابًا للذين حملهم الخوف من أكْلِ أمْوالِ اليتامى على اعتزال أمورهم وتركِ التَّصرف في أموالهم بعلَّة الخوف من سوء التَّصرف فيها، فالمعنى: إصْلاح أمورِهم خيرٌ من إهمالهم، أي: أفضلُ ثوابًا وأبعد عن العقاب، أي: خيرٌ في حصول غرضكم المقصودِ من إهمالهم؛ فإنَّ مآله إثْمُ الإضاعة، وعدم حصول ثوابِ السَّعي والنَّصيحة، وبناءً عليه فاسم التَّفضيلِ مستعمَلٌ في غير بابِهِ؛ إذ الإهمالُ ليس فيه خيرٌ ألبتةَ.

فِي الْإِصْـــلَاح تحصيلٌ لِلثَّواب وبُـعْـدٌ عَـنِ العقاب

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ صفةً مقابلَ الشَّر، إنْ كان خطابًا لتغيير الأحوال التي كانوا عليها قبل الإسلام، فالمعنى: إصْلاحُهم في أموالهم وأبدانِهم تركُ إضاعتِهم في الأمرين خيرٌ[3].

التَّعْرِيضُ بِسُوء مـا كـان عَـلَـيْـهِ أهلُ الجاهليَّة؛ لِـلـحَـثِّ على التَّمَسُّكِ بحُسْنِ شَرِيعَةِ الإسلَام

وهو تعريضٌ بأنَّ ما كانوا عليه في معاملتهم ليس بخير بل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/356.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/171-172.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/356.

هو شرٌّ، فيكونُ مرادًا مِن الآية على هذا: التَّشريعُ والتَّعريضُ؛ إذ التَّعريضُ يجامعُ المعنى الأصليّ؛ لأنَّه من باب الكنايةِ، والكنايةُ تقعُ مع إرادةِ المعنى الأصليِّ[1].

فائدة التَّعبير عَنِ المُخالَطَةِ بِطَرِيقِ المجاز:

شِـدَّةُ المُلابسَـةِ متمثِّلةٌ فِيما زادَ عَلَى إصْلاح المالِ والتَّربيةِ

قول اللّه تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾، وعُبِّرَ عنِ المخالطة بصيغةِ المُفاعلة للدِّلالة على المبالغة بتكثير جمعِ الأشْياء وخلطِها، فضلا عمّا تَحْمِلُه مِن معنى المشاركة، فهو هنا مجازٌ في شِدَّة الملابسَةِ والمصاحَبةِ، والمراد بذلك ما زاد على إصْلاح المالِ والتَّربية عن بُعدٍ، فيشملُ المصاحبةَ والمشَاركةَ والكفَالةَ والمُصاهرة؛ إذ الجميعُ مِن أنواع المخالطة[2].

نُكْتَةُ الِالتفاتِ مِنَ الغَيْبَةِ إلى الخطابِ:

تَـنْـبِـيـهُ متلقِّي الـحُـكـم إلى أهميّةِ ما سيُلقَى إلَيْهِ، وحثُّه على الانقيادِ لهُ

في قول اللّه تعالى: ﴿تُخَالِطُوهُمْ﴾ التفاتٌ مِن الغَيْبةِ في قولِهِ سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ إلى الخطابِ؛ لتنبيهِ السَّامعِ، فيتهيَّأ لسَمَاع ما يُلقَى إليه، وحملِه على الإقبالِ عليه، والانقيادِ له وتقبُّله، والتحرّزِ فيه، فمحاورة المخاطب مظنَّةُ التأثيرِ وقوّةِ الإبلاغِ المؤدّيَيْن إلى الاستجابة، وشأنُ المخالطةِ وأخوّةِ الدِّين أمرٌ لا تَخفَى أهمّيتُه؛ لكونهما مدارَ احتمالِ الإصْلاح أو الإفسادِ[3].

دِلالةُ الفاءِ واسميَّةِ الجُمْلة:

الـدَّعْـوَةُ إلَى تَـرْسِـيـخِ شَـأْنِ الْأُخُوَّةِ

الفاءُ في قوله: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ جوابيّةٌ للتَّعليل، والجُمْلة: جواب الشَّرط، وقُرِنَ بالفاء؛ لأن الجُمْلة الاسميَّة غير صالحة لمباشرة أداة الشَّرط، ولذا فـ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ خبر مبتدأ محذوف، تقديره: فهم إخوانكم، ووجود الفاء في الجواب يُنادي على أنّ الجوابَ جملةٌ اسميَّةٌ

(1) ابن عاشور، المصدر نفسه: 2/356-357.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/357.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/171، والسمين، الدُّرُّ المصون: 2/413.

محْضَةٌ، والمقْصُود من هذه الجُمْلة: الحثُّ على مخالطتهم؛ لأنَّه لَمَّا جعلهم إخوانًا كان من المتأكِّد مخالطتُهُم والوِصَايةُ بهم في هذه المُخَالطة؛ ووجبَ بَذْلُ النُّصْح لَهُمْ كما يُبْذلُ للأخ[1]، ومصداقُه قولُ رسولِ الله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[2].

والتَّعْبير بالجُمْلة الاسميَّة دعوةٌ إلى ترْسيخ شأنِ الأخوّة وتمكّنها فيهم، ثباتًا دائمًا يدومُ معه شأن الإصْلاح، ما تغيّرتْ أحوالٌ واستجدَّ مآلٌ.

جماليَّةُ التَّشبيهِ البليغ في التَّعبير عن الأُخُوَّةِ:

مَبْنَى الأُخُـوَّةِ فِي الإِسْلَامِ

وجملة ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي: هم كإخوانِكُمْ، فهو على معنى التَّشْبِيهِ، وأُخْرِجَ في صورة التَّشبيهِ البليغ - بِحَذْفِ الأداةِ ووجهِ الشَّبَهِ -؛ لبيانِ شدَّةِ المشابهَةِ بين الأُخُوَّتين، بل إنَّ أخوَّةَ الإسلام أقْوى مِنَ الأخوَّة النَّسبيّة؛ لاقتضاءِ الأُولَى المخالَطةَ بالإصْلاح، والنَّفعِ، والمشاورةِ، والرِّفقِ، والنُّصحِ[3].

نُكْتَة التَّعْرِيض في لَفْظَتَيِ المخالطة والأُخُوَّة:

إِبْـطَـالُ صِـفَـةِ التَّرفُّعِ، وَإِعْـلَاءُ شَأْنِ المُسَاوَاةِ

في قول الله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ التَّعريضُ بإبطالِ ما كانوا عليه من احتقار اليتامى، والتَّرفُّع عن مخالطتهم ومصاهرتهم، كما قال تعالى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النِّساء: 127] أي: عن أنْ تنكحوهنَّ؛ لأن الأخوَّة تتضمَّن معنى المساواةِ، ومشاركةِ الأحوال؛ فيبطلُ التَّرفُّع[4].

بَراعَةُ الِابْتِدَاءِ بِالِاسْمِ الْأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

تَـرْبِـيَـةُ المَـهَـابَـةِ فِي الـنَّـفُـوسِ، وَإِدْخَـالُ الـرَّوْعِ فِي القُلُوبِ

في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ مبالغةٌ مِلاكُها جعلُ المبتدأ الاسمَ الجليلَ؛ لتربية المهابة في النّفوس، وإدخال الرَّوْع في القُلوب، وترغيبًا، وترهيبًا، ﴿وَٱللَّهُ﴾ أي: الذي له الإحاطةُ بكلِّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/357).
(2) رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم: (13)، ومسلم في صحيحه، حديث رقم: (1599).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/220، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/357.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/357.

شيءٍ، ورسَّخ ذلك بتقديمِهِ اسمَهُ جلَّ في عُلَاهُ على الخبرِ الفعليِّ بأسلوبِ القَصْر وصيغة الاِسْتقبَال، ﴿يَعْلَمُ﴾ المفيدِ لِدَوامِ عِلْمِهِ عزَّ في عُلاه[1].

دِلَالَةُ التَّضمين في لَفْظِ العِلْمِ:

اتِّسَاعُ المعَانِي وَوَفْرَتُهَا فِي أُسْلُوبِ التَّضْمِينِ

العِلْمُ هُنا بمعنى المَعْرِفةِ المتعدِّيةِ إلى واحدٍ، وجِيءَ بـ﴿مِنَ﴾ هنا؛ لتضمينه معنى التَّمييز، أي: يعلمُ مَنْ يُفسد في أمورهم عند المخالطة أو مَنْ يقصدُ بمخالطته الخيانةَ والإفْساد مميِّزًا له ممَّن يُصْلحُ فيها أو يقصد الإصْلاح، فيجازي كُلًّا منهما بعمله، ففيه وعدٌ ووعيدٌ[2]، وفي هذا إيماءٌ إلى الجمعِ بين دِلالتَي المعرفة والتَّمييز في لفظ العِلْم، وبيانُ ذلك: أنّ استعمال الفعل ﴿يَعْلَمُ﴾ في هذا الموضع فيه قَصْدٌ إلى معنىً معيّن لا يتأتّى من دون ذكره، إلَّا أنّ تعْديتَهُ بغير الحرف المُسْتعملِ معه عادةً فيه ضربٌ مِنَ التَّوسُّع في المعنى مع غاية الإيجاز، ومؤدّاهُ أنّ للفعل دلالةً علَى أصلِ معناه، وباستعمال حرف الجرّ الذي يقتضي فعلًا آخرَ؛ يَصيرُ للفعل معنيَانِ يُكمِّلُ أحدُهما الآخرَ؛ إذ يؤدِّي الفعلُ أصلَ معناه بالتَّصريح به، ويقتضي حرفُ الجرّ معنَى الفعلِ الذي يطلبُه بالتَّضمين[3]، ويكون المعنى: يعرِفُ مُميِّزًا.

سرّ التَّعْبير بالفعلِ المُضَارِعِ:

تَكْرَارُ الْجَزَاءِ بِتَكَرُّرِ الْأَوْصَافِ الْمُقْتَضِيَةِ لَهُ

جاءَ الخبر هنا بالفعل المضارع المُفِيدِ التَّجدّدَ ﴿يَعْلَمُ﴾، وإن كان عِلْمُ اللّه تعالى أَزَلِيًّا لم يسبِقْهُ جهلٌ ولا يلحقُه نسيانٌ؛ لأنَّه قُصِدَ به لازمُ العلم؛ وهو العقابُ للمُفْسِدِ والثَّوابُ لِلمُصْلِح، وهُما وصفان يتجدَّدان مِنَ الموصوف بهما، فتكرَّر ترتيبُ الجزاء عليهما لتكرُّرِهما[4].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/267، والقونوي، حاشية على البيضاوي: 5/210.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/172، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/220.
(3) ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد: 2/258.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/172.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ عَنِ الإفسَاد والإصْلاح بِاسْمِ الفَاعِل:

الأَهْلِيَّةُ لِولايَةِ اليَتِيم بِحُسْنِ التَّصرُّف فيهِ والتَّنزُّهِ مِنَ الشُّبْهَةِ

آثَرَ الوصفَ بالاسم على الوصفِ بالفعلِ؛ لأنّه أقوى دِلَالةً وأثبتُ؛ لما فيه مِن دلالة تمكّن صفتَي الإفساد، والإصْلاح في أصحابِهمَا وثبوتها فيهما، ورسوخِ أصحابهما في هذا الوَصْف، بخلافِ لو قيل: (من يُفسد)، و(من يُصلح)[1]، وأهميّة التَّكليف وعِظَمُه مناطَا رسوخ الوصفين لصعوبته على وَلِيِّ اليتيم؛ إذ لا يتأتّى لأي أحدٍ حُسْنُ التّصرّف فيه، والتنزّه من الشُّبْهة، إلا من رَسَخَ فيه وصْفُ الإصْلاح، فكان أهلا لهذا الشَّأن.

نُكْتَة تقديم المُفْسِد على المُصْلِح:

زِيَادَةُ التَّهْدِيدِ وتَوْكِيدُ الوَعِيدِ في مَقَامَاتِ الوَرَعِ

في تقديم ﴿ٱلْمُفْسِدَ﴾ على ﴿ٱلْمُصْلِحِۚ﴾ مزيدُ تهديدٍ وتأكيدٌ لِلْوَعيد؛ لكون الورعِ مندوبًا إليه، محثوثًا عليه، ولا سيَّما في أمر اليتامى، فكان التَّحذير بهذا المقام أَوْلَى[2]، ولذلك عُلِّق العمل بالمُفْسِد أوَّلًا؛ ليقع الإمساك عن الإفساد[3].

دِلالة اللَّامِ في ﴿ٱلْمُفْسِدَ﴾ و﴿ٱلْمُصْلِحِۚ﴾:

عِلْمُ اللهِ تَعَالَى بِكُلِّ مُفْسِدٍ وَمُصْلِحٍ

المرادُ بقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ﴾ العمومُ؛ بناء على أنَّ اللَّام في الموضعين - ﴿ٱلْمُفْسِدَ﴾ و﴿ٱلْمُصْلِحِۚ﴾ - لِاستغراق جَميعِ المُفْسِدين والمُصْلِحين، فيدخل المُفْسِد في أمر اليتامى دخولا أوليًّا؛ لكونه من جملة مدلولاته، ولو حُملتِ اللَّام على العهد الخارجيِّ؛ فإنَّ المرادَ المُفْسِدُ في مال اليَتِيم مِن المُصْلِح فيه، والمُفْسِدُ بالإهمال في تربيته مِنَ المُصْلِح له بالتَّأديب[4]، والأوَّلُ أشمَلُ وأعمُّ، والثَّاني مندرِجٌ فيهِ.

(1) السّامرائي، معاني الأبنية: 15-14.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/267، والجمل، الفتوحات الإلهية: 1/266.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/172.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/172، والقونوي، حاشية على البيضاوي: 5/210.

دِلَالةُ حرف الجرِّ ﴿مِنَ﴾:

عِلْمُ اللهِ تَعَالَى بِالْمُفْسِدِ مِنْ بَيْنِ الْمُصْلِحِينَ

أفاد دخولُ (مِنَ) في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ﴾ على ثاني المتضادَّين معنى الفَصْل والتَّمييز، وهو معنى رشيقٌ لا غِنًى عن إثباتِه، وهو حاصلٌ من فعْلٍ يميِّز ومن فعْلٍ يَعْلَم، ويكون المعنى: أنّه تعالى يَعْلَمُ المُفْسِدَ مِن بين المُصْلِحين[1]، وفي هذا إيماءٌ إلى معنَى الوعيدِ؛ حيث إنَّه سبحانه لا يخفى عليه شأنُ المُفْسِدِ فيُجازيهِ على إفسادِهِ.

بلاغةُ الطِّباق بينَ المُفْسِد والمُصْلِح:

تَعْزِيزُ الْوَظِيفَةِ الْإِبْلَاغِيَّةِ لِلطِّبَاقِ بِالْوَظِيفَةِ التَّأْثِيرِيَّةِ

جاءت هذه الجُمْلة بهذا التَّقسيم؛ لأنَّ المخالطة على قسمين: مخالطة بإفساد، ومخالطة بإصْلاح؛ ولأنه لما قال اللّه سبحانه قبلُ: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾؛ فُهِمَ مقابِلُه، وهو أنَّ الإفساد شرٌّ، فجاء هذا التقسيم باعتبار الإصْلاحِ ومقابله[2].

وفي هذا الطباق إفصاحٌ عن دِلالة الرَّبط في الآية الكريمة المؤدّي إلى مزيدِ إيضَاحٍ لِلْمَعنى وبيانه، وترسيخِ دِلالة مبناه؛ بما يسبّبه مِن شدٍّ وجَذْبٍ على النَّفْس المتلقِّيَة له قراءةً وتدبّرًا، وفي ذلك تعزيزٌ للوظيفة الإبلاغيّة للطِّباق بالوظيفة التأثيريّة التي يترسّخ من خلالها المنهج الفطريّ السّليم للنَّفس البشريّة باتِّباع الإصْلاح، ونبذ الإفساد.

نُكْتَةُ الِاكْتِفَاءِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾:

شِدَّةُ تَشَوُّفِ الشَّارِعِ إِلَى وُقُوعِ الْإِصْلَاحِ

في قول اللّه تعالى: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ اكتفاءٌ؛ إذِ المعنى: قل إصلاح لهم خيرٌ، والإفسادُ شرٌّ، ولم يُذكر الإفسادُ؛ لدلالةِ الإصلاح عَلَيْهِ، ولأنَّ فيه إيماءً إلى ما يُريده الشَّارعُ مِنَ العبادِ مِنَ الإصلاحِ، حتَّى إنَّ الإفسادَ لَمَّا كان مِمَّا لا ينبَغِي وقوعُهُ؛ أُعْرِضَ عن ذكرِهِ لفظًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/358.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/172.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾:

سَعَةُ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ؛ حَيْثُ لَمْ يُكَلِّفْهُم بِمَا يَشُقُّ عَلَيْهِم

العَنَتُ: المشقّةُ، والإعْنَاتُ: الحملُ على مشقّةٍ لا تُطاق[1]. فالعَنَتُ: المشقَّة والصعوبة الشَّديدة، والجُمْلة تذييل لما دلَّ عليه قوله: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾، أي: ولو شاء الله لكلَّفَكُم ما فيه العَنَتُ، وهو أن يُحَرِّم عليكم مخالطةَ اليتامى فتجدوا ذلك شاقًّا عليكُم وعنتًا[2]، وفيه استعارةٌ تبعيّة؛ فقد شبّه المشقّة بالعَنَتِ، وهو في الأصْلِ كسْرُ العِظام، ثمَّ حُذِفَ المشبَّه به، واشْتُقَّ مِنَ المشبَّه به فعلُ: (أعْنَتَ)[3]، إبرازًا لِلْمَعنويِّ في صُورة المَحْسُوس؛ لأنَّ ذلك أَحْضَرُ في الذِّهن، وأقوَى في البيانِ.

التمدُّحُ بِكَمَالِ قُدْرَةِ اللهِ تعالى وامْتِنَانِهِ عَلَى خَلْقِهِ

وإيرادُ الشَّرطِ بـ(لو) وهي دالَّةٌ في الأصلِ على امتناعِ ما بعدهَا؛ لأنَّ الآيةَ خرجتْ مخْرج التَّمدُّح بكمال قُدْرةِ الله تعالى والامتنان على خلقِهِ بتيسير التَّكليف، والتَّمدُّح إنما يكون بالجائز[4].

سِرُّ حَذْفِ مفعُولِ المَشِيئَةِ:

عُمُومُ مَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى وَنَفَاذُهَا

حذفُ مفعولِ المشيئة حذفٌ شائعٌ لدلالة السِّياقِ عليه؛ فلا يكادون يذكرُونه، وإنّما ساغ الحذْفُ؛ لأجلِ الإيجاز، فالبليغُ تارةً يستغني بالجَواب، فيقصِدُ بذلك البيانَ بعد الإبهام، وهو من مقاصد كلام العرب[5]، وفي الحذف توسُّعٌ في المعنى، فمشيئة الله تعالى شاملة نافذةٌ لا يحدُّها حدٌّ، وذكرُ الإعنات بعد تأمّلٍ ملمحٌ بلاغِيٌّ عزيزٌ يُسعى إليه ويُتَقَصَّد.

عِلَّة التَّذْييل في فاصلة الآية الكريمة:

مِنْ آثَارِ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى: تَعْلِيلُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تذييل لما اقتضاه شرط

(1) زاده، حاشية على البيضاوي: 2/531.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/358.
(3) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/111.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/266.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/322، و2/358، و15/59.

﴿وَلَوْ﴾ من الإمكان وامتناع الوقوع، أي: إنَّ الله عزيز غالبٌ على أمرِه، قادرٌ لا يعِزُّ عليه أمر، فلو شاء لكلَّفكم العَنَتَ، لكنّه حكيمٌ واضعٌ الأشياءَ مواضعها، فاعلٌ لأفعاله حَسْبما تقتضيه الحكْمةُ الدَّاعيةُ إلى بناء التَّكليف، فلذا لم يُكَلِّفْكُمُوهُ، وفي الجُمْلة تعليلٌ لمضمون الشَّرطيِّة[1].

دِلالةُ الجَمْعِ بَيْنَ اسمَيِ اللهِ تعالى: العزيزِ والحَكِيمِ:

أَفْعَالُ اللهِ تعالى تَجْرِي على ما تَقْتَضِيهِ صِفَاتُهُ كُلّهَا

في الجمع بين اسمَيِ اللهِ: العزيز والحكيم؛ إشارة إلى أنَّ أفعالَ الله تعالى تجري على ما تقتضيه صفاتُه كلُّها[2]. فوصفه تعالى بالعزَّة - وهي عزَّة القوَّة، وعزَّة الغلبة، وعِزَّة الامْتِنَاعِ -، إشارة إلى أنه مختصٌّ بذلك لا يُشَارَك فيه، فكأنَّه لَمَّا جعل لهم ولايةً على اليتامى نبَّههُمْ على عدم قهرهم، ومغالبتهم، والحكمةُ: إشارة إلى أنه لا يتعدّى ما أَذِنَ اللهُ تعالى فيهم وفي أموالهم، فليس لأحدٍ النَّظرُ إلَّا بما أَذِنَت فيهِ الشَّريعة، واقتضته الحكمةُ الإلهيَّة؛ إذْ هو الحكيم المتقن لِمَا صَنَعَ وشَرَع[3].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخلط، والمزج، والمذق:

اختيار لفظ المخالطة قصدًا إلى المبالغة في ضمّ مصالح اليَتِيم إلى كافله فهي أدعى إلى حسن مراعاتها

المذق: "أَصْلٌ يدلّ عَلَى خَلطِ شَيْءٍ لَا عَلَى جِهَةِ النَّصَاحَةِ"[4]. وَأَصله مزج اللَّبن، يُقَال: مذقتُ اللَّبن بِالمَاءِ، وقَالُوا: مَذَقَ لَهُ المودّة، إِذا لم يُصْفِها لَهُ، ولم يُخْلِصْها[5]. فملمح الغش، وعدم صفاء النيّة في معنى اللفظة ظاهر ولذلك عدل عنها. والخلط: هو الجمع بين أجزاء الشيئين فصاعدا، سواء كانا مائعين، أو جامدين، أو أحدهما

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/220، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/358.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/359.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/173.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مَذَقَ).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة، الأزهري، تهذيب اللغة: (مذق).

مائعا والآخر جامدا، وهو أعم من المزج. ويقال خليط: للصديق والمجاور والشريك[1]. وقد أشار بعض علمائنا رحمهم الله إلى أن الخلط جمعٌ يتعذَّر معه تمييز بعض المخلوط من بعض[2]. وهو تعميمٌ فيه نظر.

أمّا المزج فهو وإنْ ورد في معجمات العربية بمعنى الخلط إلا أنّه غلب فيه التمثيل بمزج السائل بالسائل ممّا يلمح إلى استحالة التَّمييز فيه. وبذا فهو أخصُّ من الخلط[3]. وللشَّيخ الشَّعراويّ رحمه الله توجيهٌ يبدو أقرب إلى بيان الفرق بينهما؛ إذ ذهب إلى أنّ المخالطة هي المعاشرة التي لا يتعثر فيه التَّمييز. فالخلط هو أن تخلط نوعَ حبٍّ بآخر. وعندما تأتي لتمييز صنف من آخر، فأنت تستطيع أن تفصل بعضا عن بعض؛ ولذلك فالمخالطة تكون بين الحبوب ونحوها. أما المزج فهو في السوائل. والحق سبحانه يرشدنا أن نخالط اليتامى لا أن نمزج مالهم بمالنا؛ لأن اليَتِيم سيصل يوما إلى سن الرشد، وسيكون على الوصيِّ أنْ يفصلَ ماله عن مال اليَتِيم[4]. وبهذا يكون اختيار لفظ المخالطة قصدًا إلى المبالغة في ضمّ مصالح اليَتِيم إلى كافله، فهي أدعى إلى حسن مراعاتها؛ وكأنّها ماله، فضلا عن إمكان الفَصْل بينهما مستقبلا. ولفظ المزج لا يؤدِّي هذه الدلالة لاقتصاره على المزج الذي لا يمكن فيه الفَصْل والله أعلم.

المعانتة والمعاندة:

أوضح الراغب الفرق بين اللفظين بقوله: "المعانتة كالمعاندة لكن المعانتة أبلغ؛ لأنها معاندة فيها خوف وهلاك، ولهذا يقال: عَنِتَ فلان: إذا وقع في أمر يخاف منه التَّلف، يَعْنَتُ عَنَتًا"[5].

(1) الراغب، المفردات: (خَلَطَ)، وللراغب في تفسيره كلام يناقض ما أسسه في نصّه أعلاه إذ قال: "الخلط: الجمع بين أجزاء شيئين، سواء كانا مائِعَيْن، أو غير مائِعَيْنِ فهو أخص من المزج"، ينظر: الراغب، تفسير الراغب الأصفهاني: 1/453.

(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/607، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/357.

(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، ابن فارس، مقاييس اللغة، ابن سيده، المحكم: (مَزَجَ).

(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 954-2/953.

(5) الراغب، المفردات: 2/128.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث، سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 3 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-54-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 3 : سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-54-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1789539 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»